

أبو المقاسم الزهراوي.. رائد الطب الجراحي

د. عبدالمحفيظ حداد

اسمه ونسبه ونشأته:



هو خلف بن العباس المكنى بأبي المقاسم الزهراوي، وذلك نسبة إلى مدينة الزهراء التي ولد فيها عام 422 هجرية الموافق لعام 1030 ميلادية، وتوفي سنة 1106 ميلادية. والزهراء مدينة من مدن الأندلس. لقد كان أبو المقاسم الزهراوي من عائلة تنتمي إلى الأَنْصار - فأصله من المدينة المنورة - ولكنه نسب لمكان ولادته فقيل له الزهراوي، ولذلك كان يلقب بالأَنْصاري.

في هذه المدينة العظيمة عاش الزهراوي إلى أن توفي سنة 1106 ميلادية(1). ويخالف الدكتور محمود الحاج قاسم محمد في ذلك فيقول: بأن الزهراوي قد ولد عام 936م وتوفي عام 1013م(2).

طلبه لعلوم الطب ونبوغه فيها ورسوخ قدمه في مجال الجراحة الطبية:

لا يعرف الكثير من أخبار الزهراوي، ولكن من خلال النذر اليسير - الذي وصل - من سيرته العلمية نستطيع القول بأن الزهراوي قد التحق بالعمل في المستشفى بقرطبة - والذي كان قد أنشأه الخليفة عبدالرحمن الناصر - حيث كان يَعملُ النظر في الطرق والوسائل المستخدمة في علاج المرضى، ومع المطالعة وتلك المتابعة الجادة تكونت شخصيته العلمية، وترسخت قناعاته في المضمار الطبي، وكانت قاعدة الانطلاق لديه استقرار الفكرة عنده بأهمية مزاولة الطبيب لفن الجراحة بدلاً من أن يوكل ذلك لمن كان يسمى إلى ذلك الحين - صاحب الصناعة - وهو عادة من الحجّامين أو الحلاقين، حيث كان الأطباء يأنفون من ممارسة تلك الأعمال الجراحية التي تقتضي غمس أيديهم بالدم والقيح؛ ولذلك فإن الزهراوي وباستقرار هذه الفكرة عنده قد مارس الجراحة وحدق فيها وصبر على الانتقادات التي وجهت إليه حتى برع وأبدع وصار علماً فيها. ولذلك يقول الدكتور أحمد طه: (إن الزهراوي علم من أعلام الطب الجراحي لدرجة أنه لا يكاد يذكر اسمه إلّا مقترناً مع الطب الجراحي).

ونظراً للآثار العلمية التي خلفها الزهراوي مما اعتمد عليه الأوروبيون في تعليم الطب للطلاب - فإن اسمه لا يزال يتردد في أوروبا وبطرق مختلفة، فهو يسمى أبولكاسس ABULCASIS والبلكاسس، والسروي، وأكاراني، والزهراوي، وزاهرفيوس، والمكارافي. لقد كان أبو المقاسم الزهراوي إحدى الثمرات التي أخرجها الحضارة الإسلامية من بستان الإسلام، والتي سعدت بها وبأمثالها الأجيال من خلال ما تركته من بصمات الخير في رعاية المصالح ودفع المفساد، وقيام صرح الحضارة الإنسانية على قواعد راسخة، أجل لقد كان كل ذلك بجهود أمثال الزهراوي العظيم(3).

نبوغه في المجالات الطبية المختلفة:

مجالات أخرى كان للزهراوي حضور متميز فيها ومن ذلك ما يلي:

أ - في ميدان علم التوليد، ومن ذلك يحكي لنا الدكتور الدفّاع نقلًا عن الدكتور محمد القاضي: (إن الزهراوي هو أول من أوصى بولادة الحوض المسماة في أمراض النساء (وضع والمثر) في الولادة... ووصفه الزهراوي وصفاً دقيقاً، ولكنه نسب إلى العالم الأوربي (والمثر)!. وهذا يذكرنا بما أوردته في مقالي عن ابن النفيس.

ب - مزاولته الأعمال الصيدلانية وضم التعقيم، وفي هذا يقول الطب والصيدلة في مدينة الزهراء، ونال شهرة عظيمة في هذا فأبدع فيها، وكان الزهراوي دقيقاً في عمله إذ كان يعقم آلاته تطهيرها قبل إجراء العملية. وقد أثبت الطب الحديث أن مادة

الدكتور الدفّاع عنه: (وقد قضى الزهراوي معظم حياته يمارس مهنة المجال، كما استمر في دراسته للعلوم الشرعية والعلوم الطبيعية التي يستخدمها في عملياته الجراحية بمادة الصفر، للتأكد من الصفر، تقلل من تواجد البكتيريا.

ج - جهوده الحثيثة في وصف السرطان وعلاجه، ولنسمع ما يقوله الدكتور الدفاع بهذا الصدد: من الأمراض التي شغلت الزهراوي ومعاصره مرض (السرطان) وعلاجه، فقد أعطى لهذا المرض الخبيث وصفاً وعلاجاً بقي يستعمل خلال العصور حتى الساعة، فلم يزد أطباء القرن العشرين كثيراً على ما قدمه علامة الجراحة)، ثم ذكر قبساً مما قاله الزهراوي في هذا المجال مما لا داعي للإطالة في إيراده.

د - مزاولته علاج أمراض الأنف والحنجرة والعين والأذن، ولذلك يقول عنه الدكتور أحمد شوكت الشطي: (يعد الزهراوي أول من وصف مرض الناعور وصفاً صحيحاً، وهو مرض وراثي خطر، متصف بصعوبة رقوء الدم حين النزف).

هـ - عنايته بالطب النباتي وعلم التغذية وفي هذا السياق يذكر لنا الدكتور الدفاع عنه ما يلي: (بحث الزهراوي في تحضير بعض العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية... كما تعلم ابن البيطار كيفية صنع الخبز المركب من أجود أنواع القمح، وأيضاً استخراج الزيت من النبات: (كان الزهراوي طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة).

كما نقل لنا قول الدكتور محمد زهير البابا عنه في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب - والمنعقدة بمدينة حلب في سوريا - وهو: (يعتبر الزهراوي أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط، كما أنه أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية)، وسوف يمر معنا مزيد بيان لدى الكلام عن كتابه (التصريف) لاحقاً(4).

أهم مؤلفات الزهراوي:

مبتكراته وإبداعاته:

أ - وصف الزهراوي وسيلة تمنع المثقاب من أن يخترق تجويف الجمجمة، وهذه الوسيلة تتكون من قطعة من المعدن أوسع من قطر المثقب الذي يحده مثقاب الجمجمة، فتقوم بمفعول الحداثة لمنع انثقاب الدام الجافية والمخ.

ب - وكذا الآلة الخاصة - السنابير لاستئصال الزوائد اللحمية - POLIP - من الأنف.

ج - والزهراوي هو الذي اكتشف المحقنة الشرجية - BULBSYRINGE فهو أول من وصف محقنة شرجية مربوطة عليها جلدة واستعملها لحقن الأطفال.

د - وابتكر كذلك آلة خافضة لسان حيث تستعمل لكبس اللسان أثناء إجراء عملية اللوزتين ونصح بصنعها من النحاس أو الفضة على شكل رقيق كرقعة المسكين وهي التي تشبه التي نستعملها الآن لنفس الغرض.

هـ - وقد اخترع الزهراوي منظاراً خاصاً لفحص المهبل سماه لولباً، وربما أعطى هذه الآلة ذلك الاسم لأنها تتحرك على لولب هو محور انفتاحها وانغلاقها، وهي تختلف اختلافاً واضحاً عن نظيرتها التي صممها سوراني(6).

و - وقال: نجد في كتابات ابن سينا والزهراوي إشارات لعمل بعض الغدد النماء فذكروا الفرق بين الورم السليم والخبيث للغدة الدرقية وذكروا حالات العقم في الرجال والنساء وحالات الخنثى). والدكتور الدفاع يؤكد سبب الزهراوي إلى معرفة السرطان فيقول: (من الأمراض التي شغلت الزهراوي ومعاصره مرض السرطان وعلاجه، فقد أعطى لهذا المرض الخبيث وصفاً وعلاجاً بقي يستعمل خلال العصور حتى الساعة، فلم يزد أطباء القرن العشرين كثيراً على ما قدمه علامة الجراحة(7).

هذه أهم ابتكارات ومظاهر الريادة الطبية التي يذكرها التاريخ للزهراوي، وفي ختامها نتوقف لبسط الكلام عن كتابه التصريف سابق الذكر.

فهل نعتبر بسيرة سلفنا من العلماء الذين كانوا نجوماً في سماء العلم والحضارة والتقنية، لنسعد في الدنيا ونفوز في الآخرة؟.

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه... آمين.

المراجع

- 1- كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، الذي يذكر عنه الدكتور أحمد فؤاد باشا في التراث العلمي للحضارة الإسلامية بأنه: أكبر مؤلفاته وأشهرها، فهو موسوعة طبية تقع في ثلاثين جزءاً ومزودة بأكثر من مائتي شكل للأدوات والآلات الجراحية التي كان يستخدمها الزهراوي، ومعظمها من ابتكاره. ولقد حظي هذا الكتاب باهتمام كبير لدى أطباء أوروبا وبقي كتاباً تدريسياً معتمداً في جامعات أوروبا لعدة قرون. وأول لغة ترجم إليها هذا الكتاب عقب ظهوره كانت اللغة العبرية، ثم ترجم إلى اللاتينية بالبلدقية عام 1495م، وفينيسيا عام 1497م، وستراسبورج عام 1532م، وبالقاهرة عام 1541م، ويزيدنا الدكتور محمد مصطفى السمرى معرفة بهذا الكتاب حيث يقول - في مقالة حول الزهراوي بمجلة الحرس الوطني نشرت في العدد 150 - ما يلي: (وضمن كتابه صوراً عديدة للآلات والأدوات الجراحية التي اخترعها بنفسه، والبالغ عددها 200 آلة، مثل: جفت الولادة، المنظار المهبلي، المحقن أو الحقنة العادية، الحقنة المشرقية، خافض اللسان، مقصلة اللوزتين، الجفت وكلايب خلع الأسنان، مناشير العظام، المكاوي على اختلاف أنواعها، زاهيك عن عشرات من الميارد، والجائر، والمجارد، والمشارط، والمجسات، والقساطر). 2- كتاب تفسير الأكيال والأوزان. وقد ذكر الزركلي في سياق ترجمته للزهراوي بأن هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً. 3- كتاب فيه أسماء العقاقير باليونانية، والسريانية، والفارسية، والعجمية، وتفسير الأكيال والأوزان، وبدل العقاقير وأعمالها، وتفسير الأسماء الجارية في كتب الطب. ذكره الزركلي في الأعلام، ثم قال بعد ذلك: (ولعله غير (الأكيال والموازين) المذكور في الترجمة. 4- كما ذكر الزركلي ما يلي: (وفي خزانة الرباط (93 جلاوي) مجموع صغير، فيه مختصر مفردات خلف بن عباس الزهراوي وخواصها. 5- كتابه الكبير المسمى بالزهراوي. وقد أورد ذكره ابن أبي أصيبعة، وقال: (وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي) (5). 1- مع تمرس الزهراوي في مجال الجراحة بشكل عام - فيبدو أنه أول من فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية الأخرى، وجعلها تعتمد على دراسة التشريح، ويبدو أنه كان أول من اعتبرها فرعاً من فروع الطب، وكان يؤيد مبدأ التخصص في المجالات الطبية. 2- هو أول من وصف عملية سل العروق من المساق لعلاج دوالي المساق، والعرق المدني واستخدمها بنجاح. 3- بالنسبة لعلاج الحصى جراحياً ذكر الزهراوي تفاصيل دقيقة، كما وصف تفتيت الحصى بتكسيورها وتفتيتها بطريقة فريدة لم يسبقه أحد إلى معرفتها، وكذلك فإنه تكلم بتفصيل عن الناصور الشرجي وكيفية إجراء الجراحة لاستئصاله. 4- تكلم عن عملية شق الإدارة المائية، وكذلك عملية الغدة الدرقية، وتسمى قيلة الحلقوم. 5- تكلم عن التهاب العظم المزمن بشكل منطقي، ووصف كسور الجمجمة وعلامات استكشاف الجراحات للتشخيص النهائي. 6- ولقد أورد الدكتور محمود الحاج قاسم محمد في كتابه (الطب عند العرب والمسلمين) جملة من ضمن ما كان الزهراوي قد ابتكره نذكرها في ما يلي: 1. انظر كتاب د. علي عبد الله الدفاع ص 119 - أعلام العرب والمسلمين في الطب - وكتاب الطب الإسلامي للدكتور أحمد طه ص 64. 2. انظر كتاب الدكتور محمود - الطب عند العرب والمسلمين ص 106 - 158. 3. انظر - الطب الإسلامي - للدكتور أحمد طه ص 64، ومقالة الدكتور العمري في العدد 150 من مجلة الحرس الوطني للدكتور محمد مصطفى السمرى. 4. انظر كتاب د. علي الدفاع سابق الذكر، وذلك في الصفحات من 119 إلى 132، وحيون الأنباء ص 501. 5. انظر كتاب الأعلام للزركلي ج 2 ص 310 - 311، وحيون الأنباء ص 501. 6. انظر كتاب - الطب عند العرب والمسلمين - للدكتور محمود ص 106 - 158، وكتاب حكمت نجيب عبد الرحمن - دراسات في تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين ص 57 - 58، وكتاب التراث العلمي للحضارة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد باشا ص 169 - 170. 7. انظر كتاب الطب عند المسلمين - للدكتور محمود، الطب عند العرب والمسلمين نفس الصفحات السابقة.